قصص | شهادة شخصية

بين الطموح القهر..

بقلم: إبراهيم خالد – ناج من محرقة الأمن الوطني

سند

sanadarts.com

لم يكن نهار الأول من فبراير عام خمسة وعشرين وألفين يوما عاديا؛ بل كان فاصلا بين حياةٍ ملؤها الطموح، وهُوّةٍ سحيقة من القهر. نزلتُ من غرفتي قاصدا جهة عملي والنعاس يداعب أجفاني بعد ليلةٍ قتلتُ دقائقها عداً بانتظار الخلاص من أرق طويل أضج مضجعي؛ فقد لبثت مليا طوال الليل أفكر كيف سأدبر القسط الثالث لشقتي التي لطالما تمنيت شراءها، كنتُ أرقبُ بزوغ الفجر كأنه طوق النجاة من عناء التفكير، وما كنتُ أدري أن الضجيج الحقيقي هو الذي لا زال ينتظرني. هناك، خلف غياهب المجهول، في أزمنة غير تلك الأزمنة وأمكنة غير تلك الأمكنة وبشر غير هؤلاء البشر وبقواعد غير تلك التي نحيا بها.

وما أن استأذنتُ للخروج من عملي، وخطوتُ أولى خطواتي خارج أسوار المؤسسة التي أعمل بها، حتى انقبض الزمن فجأة، وانقضّت عليّ تلك المركبةُ الزرقاءُ الداكنة – التي تُشترى بأموالنا – كأنها غرابٌ يقتنص فريسته، واندفع منها خمسة رجال بملابسهم المدنية وملامحهم الجامدة، يشهرون في وجهي الموت بمسدساتهم. وفي لمح البصر انتُزعتُ من بين الناس، وكأنني جُرمٌ هارب، وقذفوا بي إلى سيارتهم بعد تجريدي الفوري من هاتفي وكل ما كان بجيبي. وصار طريقي إلى مقر "الأمن الوطني" أو إلى ما وراء الشمس – كما يقولون – رحلةً نحو تجريدي من آدميتي.

سألت نفسي وسألتهم طوال الطريق: ما ذنبي؟ وما جنايتي؟ أنا لا أحدث أحدًا بالدين ولا بالسياسة، فلماذا كل هذا! ولكنه بلا جدوى. وصلتُ مع أذان الظهر، فلم يستقبلني نداء الصلاة بالسكينة، بل استقبلتني القيودُ والأغشية التي حُجبت بها عيناي عن النور. وبعد إهانات وتوبيخات شتى من أمناء الشرطة الذين كانوا يتولون مهمة اقتيادي في الطرقات بين الغرف. همس أحدهم في أذني: "جهزي نفسك عشان تترقصي على الكهربا تك تك تك" وسلمني لزميله الذي صرخ بأعلى صوته وبضحكة ساخرة: "الليلة دخلتك يا عروسة ها ها ها". وهكذا حتى اقتادوني مباشرةً كالقسير إلى غرف التحقيق في الطوابق العليا، وهناك بدأت فصول المأساة. واجهني ضابطان يعاونهما ثلاثة عساكر، خشنةً أصواتهما، غليظةً قلوبهما، يكاد المرء يلمس في نبراتهما خريف العمر وقسوة الرتبة. وهكذا دار التحقيق لما استهلوه بسؤالي:

ازيك يا فلان؟ عارف اي اللي جابك هنا؟

= لا والله نفسي أعرف.

-مين بيجيبلك التمويل؟

= تمويل! تمويل اي يا باشا يا ريت والله.

-شكلك هتبدأ تتعب نفسك أهو .. مين كان مسؤولك في الجامعة؟

= ولي أمري كان أبويا وأمي.

وبضحكة ساخرة ممزوجة بشتائم جنسية عدة انهالت على وجهي أولى الصفعات.

يعني مش عايز تقول؟

= يا باشا أقول اي بالضبط أنا مش فاهم حاجة.

لم يكن التحقيقُ استجواباً، بقدر ما كان محاولةً لكسر إرادتي. فحين لم تُشبع إجاباتِي الصادقة عن نشاطي الجامعي وتعاملاتي المالية البسيطة نهمهم، قرروا الانتقال إلى "المرحلة الكبرى". فعلت أصواتهم، وانهالوا عليّ بسياط من الإهانات التي لم تسلم منها كرامتي ولا عرضي ولا حُرمة أهلي، ثم جردوني من ملابسي قسراً رغم تمنعي، حتى صرت عريانا كيوم ولدتني أمي إلا من العصابة التي حول عيني، ثم شرعوا في نصب مسرح العذاب:

قماشة: استُبدلت الأصفاد الحديدية برباط قماشي خشن شُدَّ خلف ظهري بعنف، ليجعل القفص الصدري في حالة تمددٍ قاتلة، وكتفيَّ الاثنين في حالة شد عنيف.

مرتبة رَثَّة قديمة: طرحوني أرضاً فوقها، وجلس عسكريان بكل ثقلهما فوق أكتافي، كل عسكري على كتف، ليئدا أي حركةٍ دفاعية فطرية قد تصدر مني.

كرسي ساند: وضعوا كرسياً بين ساقيَّ لفتحهما عنوةً، ورُبطت قدماي بأسفله بإحكام لا يلين.

ثم بدأت الصعقات. سلكان كهربائيان استقرا في أصابع قدمي، ومع كل ضغطة زر، كانت الشحنة الكهربائية تعبر جسدي كإعصار من السكاكين المحماة أو عضات كلاب ضالة جائعة تنهش لحمي بلا رأفة. كنتُ أشعر بدمي يغلي، وبمخي كأنه مرجلٌ يفور. كانت ساعات التحقيق تمتد من الظهر حتى العشاء بلا هوادة؛ صرخات استغاثةٍ تُبّح لها الحناجر، وطلبٌ مستميت لقطرة ماءٍ تجفف ريقي الذي استحال علقماً، وشكوى من كتفٍ كاد ينفصل عن جسدي، لكن القلوب كانت أقسى من الصخر. كانت شدة الصعق تجعل الجسد ينتفض ويرتعد برعشاتٍ

جبارة؛ فرغم كل تلك الأغلال الثقيلة والأجساد الجاثمة فوق صدري وأكتافي، كنتُ أندفعُ قسراً بانتفاضاتٍ عاتية تُزلزل العسكريين وتنفضهم عني، مما كان يستشيط الضابط غضباً، فينهال عليهم بالتوبيخ والزجر لعجزهم عن تثبيت جسدٍ يصارع الموت. كنتُ أنطق الشهادة مع كل صعقة، مستحضراً مشهد الموت الذي خيّم على الغرفة، موقناً أنه بات قاب قوسين أو أدنى.

ولم يكتفوا بصعق الكهرباء، بل امتدت أيديهم وأرجلهم بالضرب المبرح والرفس على أرجاء جسدي كافة، وصولاً إلى رأسي الذي تلقى ضرباتٍ كادت تطيش بالعقل. وفي ختام كل جلسة، كان الضابط ينتزع الكرسي من بيد ساقيَّ، ويفك قيد الساقين، ثم يباعد بينهما بيديه قسراً ليفسح الطريق أمام عضوي الذكري العاري، ثم يَهوي بقعر قدمه وبأقصى ما أوتي من قوة وبطشٍ عليه، يكرر ذلك كَرّاتٍ ومرّات في ساديةٍ تتأفف منها الإنسانية. كان كل هذا الجحيم يتخلله سيلٌ من الأسئلة الممزوجة بالشتائم الجنسية المقذعة، والتهديدات الصريحة بهتك العرض. سُئلتُ عن صلاتٍ وهمية بشخصياتٍ لا أعرفها، وكيفية التواصل معهم، وأين أخفي تطبيقات "الديسكورد" و"الـ VPN" على هاتفي، فضلاً عن تحقيقاتٍ مطولة حول علاقتي بجماعة الإخوان المسلمين ودوري الذي لا أعرفه في إعادة إحياء الجماعة على حد قولهم، بالإضافة لمنشوراتٍ عادية كتبتها – كشأن كل الناس – تعاطفاً مع مأساة "غزة" وما نسجوه حولها من علاقاتٍ موهومة. وكانت أجوبتي تتردد بالنفي القاطع تحت وطأة العذاب؛ إذ لم أكن أعرف أحداً من هؤلاء، ولم تكن لي غايةٌ في هذه الحياة سوى السعي الدؤوب لتحسين مستوى معيشتي، ورفع دخلي المادي، وأداء ما عليَّ من التزامات مادية. ورغم كل الأيمان والإثباتات التي قلتها لهم لم يكن ليكفهم عن مواصلة حفلة التعذيب تلك إلا أن وعيي قد غاب عني.

وما كنتُ أفيق من غيبوبة التعذيب إلا وأنا مُلقى في زنزانة انفرادية مراقبة بالكاميرات أخال أن مساحتها كانت 50 سم × 200 سم، مكبل اليدين إلى أسفل الجدار كبهيمةٍ في مذود. لا أحد يشاركني القيد والوجع، لا شيء إلا زجاجة مياه فارغة، ودلو بلاستيكي فارغ لأقضي به حاجتي. هناك، في سكون الليل، كنتُ أتحسس جسدي وأطلب أي شيءٍ يسد رمقي ويعدل مستوى السكر الذي هوى بي إلى حافة الموت. أكلتُ بلهفة الغريق علبة صغيرة من المربى مع قطعة صغيرة من الحلاوة الطحنية رديئة الصنع، كانت تلك اللقيمات البائسة باليوم الأول هي أول ما دخل جوفي بعد دهور من الجوع والعطش، وما أن أفرغ حتى يعاد اقتيادي معصوب العينين لاستكمال "الرقص مع الكهرباء" حتى هزيع الليل الأخير، حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

تكرر هذا المشهد لأربعة أيام طوال، كانت الشحنات الكهربائية فيها تزداد قوةً وكأنهم يريدون تفكيك ذرات جسدي. وحين لم يجدوا عندي خبراً عن "العمليات الإرهابية" أو "التمويل الخارجي"، أمعنوا في ساديتهم بوصل الأسلاك بعضوي الذكري مباشرةً. في تلك اللحظة، لم يعد الألم جسدياً فحسب، بل صار طعنةً في كرامة الروح. كنتُ أشعر وكأن كلاباً مسعورة تنهش في لحمي من الداخل، وبرودة الغرفة التي أُترَكُ فيها عارياً كانت تزيد من ارتعاش أطرافي، وحين استعصى عليهم انتزاع اعترافٍ بما لم أفعل قاموا بإجلاسي على كرسي حديدي وتقييدي به، ومن ثم توصيل الكهرباء بأطراف هذا الكرسي، فتستشري داخل جسدي دفعةً واحدة، في لحظات تنفطر منها القلوب وتشيب لها الولدان، صارخين بي أن أرحم نفسي من هذا العذاب وأعترف "بما لم أفعل"، وأنهم أرحم بي من كثيرين غيرهم يطلبونني بالاسم ولولا وجودي معهم هنا لما رُحمت.

وفي ختام تلك الأيام، بدلوا جلودهم، فخاطبوني بلينٍ كاذب، وقدموا لي المشروبات، مدّعين أن أفكاري متجذرة كخلايا الدم ولا سبيل لانتزاعها إلا بالتعاون. وحين أصررتُ على براءتي، هددوني علانيةً بالزجّ بي في قضايا جاهزة ومعلبة تنتظر متهميها. خُتمت الرحلة بترحيلٍ ليلِيّ، وعرضٍ صوريّ أمام النيابة، وتهمٍ كُتبت قبل أن أُولد. وقفتُ بملابس ممزقة، وعينين غائرتين، وجسدٍ يحمل ندوب الكهرباء، أدافع عن نفسي أمام وكيل نيابة تجاهل كل الحقائق، ليوقعني في شباك قضيةٍ لا ناقة لي فيها ولا جمل، مخلّفاً وراءه مستقبلاً أُحرق تحت وطأة الصعق. وأثناء تنقلي من وإلى النيابة كنت أرى الناس يمشون بالشارع كأنني في عالم وهم في عالم آخر. هناك، تيقنتُ من مرارة الواقع؛ فبينما كان الجميع يسطرون مستقبلهم ويعيشون أيامهم في سلام، كنتُ أنا أقبع خلف القضبان، لا لذنبٍ جنيته، بل لضريبةٍ فُرضت عليّ في زمنٍ التبست فيه الحقائق بالخيال.